المطوعة سلطنة... الشجرة المثمرة

وفي الأحساء، وقبل انتشار التعليم النظامي في المنطقة، عرّف المجتمع هذا النوع من التعليم منذ قرون، وكان التعليم يُشجّع ويحثُّ عليه من قِبَل الأهالي على الرغم من شطف العيش وقلة الموارد في العقود الماضية. وتشير الكثير من الوثائق القديمة، إلى أعداد كبيرة من النخيل وغيرها، قد أُوقِفَتْ من قِبَل بعض المحسنين لدعم دور التعليم ومن يقومون عليها. وهذا مؤشرٌ على مدى ارتباط الناس بالعلم ودعمهم له في هذه المنطقة.

يقول الشيخ محمد عليّ الحزري، في بحثه القيم بعنوان (المطوع في الأحساء، المعالم والتاريخ) :

"إن الأحساء كانت تمتلك في تاريخها وتراثها الخاص في مجال التعليم من حيث الأسلوب، والمنهج، والمصطلحات التعليمية، والاحتفاء بالختمة، وطريقة التحميدة، وغيرها، الأمر الذي ميّزها وجعلها صرحاً علمياً بارزاً".

ولم يكن المعلم في المطوع موظفًا رسميًا يتقاضى راتبًا على عمله، وإنما يؤدي مهمته لوجه الله للمتعلم الذي لا يستطيع الدفع، أما ميسور الحال فيقدم أهله للمطوع مما تملكه أيديهم من تمر أو حبوب أو نقود في نهاية المرحلة أو الفصل.

ومن الأمثلة الدالة على ارتباط السكان بالتعليم ودعمهم له في هذا الحي، فقد تولى الحاج المرجوم أحمد بن محمد السعود الحداد مهمة الإشراف على ملف تعليم أبنائه وأبناء إخوانه (وأبناء المرجوم محمد السعود الحداد هم ثلاثة إخوة جاسم، وسعود، واحمد).

وذكر لنا الأستاذ عبداً سعود الحداد (بوزكي)، أن عمه أحمد (رحمه الله) قد استأجر بيتاً في محلة حريجة، واتفق مع المرجوم الملا حسين الجبران (من البطالية) على أن يتولى مهمة تعليم أبنائهم في

ذلك البيت. وأذن للشيخ الجبران في أن يلحقَ طلابَ آخرين بهذه المدرسة، وله الحق في الاستفادة من أجره تعليم هؤلاء الأطفال. وفي مرحلة لاحقة، قام الحاج أحمد بن محمد السعود الحداد على تسجيل أولاده وأولاد أخوانه بأول مدرسة حكومية في مدينة المبرز، وهي المدرسة الأولى بالمبرز. حيث تخرج ابن أخيه الحاج طاهر بن سعود الحداد من هذه المدرسة في عام ١٣٨٣ هـ.

تعريف...

عَرَفَ مُجْتَمَعُنَا أَفْرَادًا تَمِيزُوا بِالْعَطَاءِ، فَكَانَتْ خِدْمَةُ الْغَيْرِ وَنَفْعُهُمْ هَدَفًا لَهُمْ وَمَصْدَرًا لِسَعَادَتِهِمْ، وَالْقَائِمَةُ طَوِيلَةً لِمَنْ سَلَكَوا هَذَا الطَّرِيقَ، وَخُصُوصًا مِنْ زَكَرُوا حَيَاتِهِمْ فِي سَبِيلِ رِسَالَةِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

وفيما يلي نعرض مثالاً لإحدى المربيّاتِ الفاضلاتِ ممن حملن مشعل العلم، وأخذن بأيدي المتعلمين، وهي (المطوعة سلطنة) التي تُعتبر من الرائداتِ في مجال التعليم الأهليّ المعروف بالمطوع.

أمضتْ هذه المعلمة أكثرَ من أربعين عامًا متواصلة في تعليم الفتياتِ في حيِّ الشعبة بمدينة المبرز؛ فتخرَّجَ من منزلها المئاتُ من المتعلماتِ اللاتي يلهجنُ بالابتهاجِ إلى الآن بالرحمة لها بعد انتقال روحها الطاهرة إلى بارئها.

المولد والنشأة...

هي الحاجة المرحومة (فاطمة بنت المرحوم عيسى بن أحمد البوحسن)(١). ويعرفها المجتمع باسم (المطوعة سلطنة)، وهي من مواليد حيِّ الشعبة القديمة بالمبرز عام ١٣٤٣هـ. وقد ذاقَتْ مرارة فقدان عطف الأم بوفااتها، وهي طفلة صغيرة، فتربّت في كنف والدها وتحت رعايته مع اثنتين من الشقيقات، وقامت على تعليمها (المرحومة مريم) وتُعرف أيضًا بسلطنة الأم.

وبعد زواج (المطوعة سلطنة) من أحد أقربائها أنجبت خمسةً من الولد ولكنهم توفوا صغاراً. وبعد انفصالها عن زوجها الأول ووفقت بالزواج من أحد المؤمنين والذي كان لها خير سندٍ لها في هذا الطريق المبارك، حيث ساعدها في أداء هذه الرسالة النبيلة في بيته ولفترة من الزمن.

البيت المدرسة...

إيماناً منها - رحمها الله - بأهمية المكان والجو الدراسي في عملية التعليم، فقد اشترت المطوعة سلطنة بيتاً في المبرز، وهيأته ليكون مقرراً للتعليم وتدريب الفتيات القرآن الكريم ومبادئ القراءة (٢).

يقع هذا البيت في الجنوب الغربي للمسجد الشرقي بحي الشعبة، قرب (براحة أم عجاج) التي تقع قرب بوابة (دروازة) الشعبة القديمة في جنوب المسجد الشرقي حالياً. ولهذه البراحة أهمية اقتصادية حيث كانت المكان الذي يتجمع فيه عمال المزارع صباحاً - ويُعرف باسم سوق (المجرية) - حيث يقف فيه الفلاحون الراغبون في العمل بالأجر اليومي، وقرب صخرة معروفة في البراحة تُعرف بصخرة (أم عجاج). والوصف الهندسي لهذه البراحة أنها على شكل مستطيل غير مستوي، تميل للارتفاع في اتجاه الغرب، وهي متوسطة المساحة، وحالياً أرضها مرصوفة بالبلاط.

يقول الشيخ (حسين بن علي البوخضر) عن أهمية براحة أم عجاج: "كانت هذه البراحة في الماضي، هي نقطة تجمع الحجاج وزوار قبل انطلاقهم إلى الأماكن المقدسة، فكانت تقف في هذه البراحة سيارتان كبيرتان (من نوع المرسيديس) لتحمل الزوار وأمتعتهم لتلك الرحلة الإيمانية".

والجدير بالذكر، أنه في فترة لاحقة انتقل مكان تجمع الزوار ووقوف السيارات إلى خارج بوابة الشعبة، في جهة الغرب لمزرعة (وقف مستورة).

فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانٍ... .

عُرِفَ عن المطوعة سلطنة عفة اللسان والتسامح. فعلى سبيل المثال، كان من المتعارف عليه أن يدفع أهلُ البنت مبلغًا رمزيًّا من المال، وهي رِيالاتٌ قليلة للمطوعة تُعرَف (بالشهرية)، إلا أنها - رحمها الله - كانت رفيقة بالمتعلمين ولا تُلزم الجميع بالدفع، وخصوصًا من تكون حالتهم المادية ضعيفة، بل كان البعض لقلة ذات اليد لا يدفعون لها إلا بعد أن تشبَّ البنتُ وتُخطب للزواج!.

كما عَمِلتْ على إعداد جيلٍ من القارئاتِ (المُلاياتِ) لخدمة المآتم الحسينية. وساهم هذا المقرُّ الجديد في استيعاب أعداد كبيرة، ووفر للفتياتِ المكان المناسب، والخصوصية اللازمة للتحصيل والإبداع. وبهذا ضربتْ لنا هذه المرأة الصالحة مثالًا رائعًا للعلاقة الحميمة بين المريِّي والتلميذ.

تخرَّجَ في هذه المدرسة العشراتُ من المعلماتِ اللاتي سرَّنَّ على النهج نفسه، وحملن مشعل العلم من بعدها، وكنَّ خير خلفٍ لتلك الأمِّ الرؤوم والمعلمة القدوة.

وفي حيِّ الشعبة، هناك الكثيراتُ ممن سلكنَ هذا الطريق (معلماتُ للقرآن الكريم أو ملاياتِ حسيني)، وقد زودني (الحاج حسين بن حسن البوكنان) مشكورًا بهذه القائمة.

المرحومة مريم حجي الكويتي

المرحومة أم عايش الزيد

السيدة فاطمة السيد حسن السلطان

المرحومة بتلة البراهيم

المرحومة نوره العبد الله

السيدة مريم السيد علي الحسن

المرحومة خيرية الأريش

المرحومة بتلة البوصالح

المرحومة فاطمة عبد العزيز العبدالواحد

المرحومة أم موسى الموسى

المرحومة أم جواد الشاوي

المرحومة أم عبد اللطيف النشمي

المرحومة أم عبد الله علي البحراني

المرحومة زهرة المؤمن

السيدة مدينه (أم عبد الله البوعلي)

المرحومة أم إبراهيم الصاعه

المرحومة آمنة الزيد

المرحومة فاطمة الكويتي (أم حسين)

المرحومة آمنة أحمد البناي

المرحومة فاطمة الجد

المرحومة فاطمة البوحسن (سلطانة)

المرحومة أم حسين الأريش

المرحوم أم فضل القمبر

المرحومة مريم محمد البراهيم

السيدة مريم السيد حسين العلي

المرحومة علي الماجد

المرحومة فاطمة الصالح

مصدر هذه المعلومات: الحاج حسين بن حسن بوكنان

خدمة سيد الشهداء...

سخرت هذه المرأة جميع إمكانياتها لهذه المهمة والنبيلة، وقدمت° للمجتمع خدماتٍ جلييلة، إضافة لشرف التوفيق لخدمة القرآن وتعليمه، كانت من المساهمين في مأتم أبي الأحرار كملاية حسينية، فجعلت° من بيتها منارة للإشعاع ونشر علوم (آل محمد)، وتخرّج من هذا البيت أعداد° من القارئان، ممن سرن° على نهجها المبارك، لخدمة سيد الشهداء، ومنهم نساء° فاضلات°، من الشداد، والخلص، والحداد، والعبادي، والبوسنة وغيرهم الكثير.

وفي حال سفرها للحج أو للزيارة، فقد كانت تُوكّل مهمة الإشراف على المدرسة إلى الحاجة الفاضلة فاطمة بنت الحاج صالح الحسن - وهي في مقام ابنتها - حرصًا منها على استمرار الدراسة دون توقف.

عُرِفَت° (رحمها الله) بحبها لخدمة سيد الشهداء في حياتها وبعد مماتها. فكانت مثالًا للداعمين لديوانه، فأوقفت° بيتها ليكون في خدمته وإحياء ذكرى مناسبات أهل البيت عليهم السلام. وبذلك تكون إن شاء الله من الراكبين في سفينة النجاة. والوليُّ° على هذا البيت حاليًّا هو أحد العلماء الأعلام في المنطقة.

كما علمنا أن لها أيادي بيضاء على كثير من المعوزين من أبناء المجتمع، لكننا لم نتمكن من الحصول على معلومات كافية في هذا الصدد.

وقفه مع هذه الشخصية...

استطاعت° (المطوعة سلطنة) كامرأة، ورغم ظروفها القاسية أن تُسجلَ اسمها في سجل المؤثرين، وهم قلة في المجتمعات. ونعقدُ أنَّ السرَّ يكمنُ في وعيها بأهمية الرسالة ومواصلة الطريق.

وعند سؤالنا لزينة.ع.م. البحراني(٣)، وهي من كاتباتِ الجيل الأدبيِّ الجديد: ماذا تقرأ في سيرة المطوعة سلطنة؟

"قد يبدو ما أقرأه أنا بعيدا عن ذهنك قليلا، أو على الأقل.. لا يقع على خطِّ توقُّعاتك بالنسبة لفتاةٍ من الجيل الذي أنتمي إليه. ربِّما لأنني أركِّز اهتمامي على قوَّة شخصيَّتها كامرأة في تلك الفترة أكثر من تركيزي على فعاليَّة وجودها الاجتماعي. ولعلَّ سرَّ ذلك يكمن فيما أراه حين أقارن بين أحوال المرأة في الزَّمن الحاضر والزَّمن الفائت، إذ كثيرًا ما يفاجؤني في سيرة امرأة الزَّمن الغابر أنَّها كانت تتديَّر أمورها بصلابة أكبر من حفيدتها أو ابنة حفيدتها الجديدة. رغمَّ أنَّ تسهيلات الزَّمن الحاضر تهيئها فرصة أكبر لتديَّر أمور الحياة بسهولة أوفر. ومن هنا يتصاعد إعجابي بشخصيَّة المطووعة (سلطنة/ بنت عيسى) لأنَّها رغم جميع ما مرَّ بها من أحداث مؤسفة، والتي منها وفاة أطفالها الخمسة، وانفصالها عن زوجها الأوَّل، وضعف بصرها.. ثمَّ ما تبع ذلك من مشاكل ألمَّت بحياتها، لم تستسلم على الإطلاق!..

لم تسلِّم أمرها للتداعي والانهيال النفسي وصولا إلى الموت أو الجنون، بل كافتحت لتكامل حياتها بطريقة تؤكِّد أنَّها بفطرتها وحدها استطاعت الوصول إلى ما تعجز عن بلوغه الكثيرات من المتعلِّمات وحاملات الشهادات المدرسيَّة والجامعيَّة العالية في العصر الحديث.. بل تفوِّقت بصلابة شخصيَّتها الفطريَّة، والتي ربِّما لم تفتن إليها هي نفسها، على الكثير من شبَّان ورجال فترتنا الرِّاهنة، الذين سرعان ما يلقي بهم اليأس في هاوية العجز وفُقدان الثِّقة بالنفس، ومن ثمَّ الانطواء على الذِّات والانزواء عن الاختلاط الفعَّال بالمُجتمع". انتهى

نهاية المطاف...

يقول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) : «خيرُكُمْ من تعلَّمَ القرآنَ وعلاَّ مَمَّه». والمطوعة سلطنة من الرائداتِ في مجال التعليم وخصوصًا القرآن الكريم في حيِّ الشعبة قبل انتشار المدارس الحكومية للبنات.

ضربتْ هذه المؤمنة لنا مثالاً جميلاً، لمن سخَّرتْ إمكانياته جميعها لرسالة التعليم، وعملتْ على غرس روح العلم والعطاء، وخصوصًا لمن يتعلمُ تحت رعايتها. كانت ولعقودٍ من الزمن تعمل بصبر وهمة عالية، وتفانٍ رغم الإعاقة، حتى أنهكتها آلام المرض. وظلت طريحة الفراش لأشهر، وفي هذه الفترة تكفلتْ برعايتها السيدة الفاضلة أم الأستاذ حسين بن عليِّ العبداء (الشاعر). وفي تاريخ ١٥/٢/١٤١٧ هجرية، انتقلت إلى رحمة الله تعالى، ودُفِنَتْ في مقبرة الشعبة. رحمة الله عليها، وأسكنها فسيح جنانه.

ملاحظة: سوف يصدُر هذا الموضوع وغيره، ضمن كتاب بعنوان " كشكول حيِّ الشعبة...سيرة الحيِّ والمجتمع"، بقلم الكاتب. ففي حال وجود أخطاء أو إضافاتٍ الرجاء التنبيه عليها.